

ابن باجه وفلسفة الاغتراب

أ.د. محمد إبراهيم الفيومي

الجو الفكرى لعصره ومظاهر العزلة :

١ - العزلة السياسية :

توزع المجتمع الاندلسى الاسلامى : دويلات وعصبيات يشق على الوحدة المتجانسة أن تتخذ طريقها اليه ، فمن حيث الاتجاه السياسى ، ساد المجتمع قبيل حياة « ابن باجه » صراعات شديدة بين العرب والبربر والصقالية والاسبان ، وصار فى كل مدينة كبرى ملك أو أسرة حاكمة : فبنو حمود : بمالقه ، والجزيرة ، وبنو عامر : ببلنسية ، وبنو عباد : باشبيلية ، والادارسة : بغرناطة ، وبنو هود : بسرغوسة ، وبنو جهور : بقرطبة ، وبنو ذى النون : بطليطلة ، والبرز الى : فى قرمونه •

هذه العنصرية ذات الشكل القبلى فى المغرب ، أدت الى التفرق فى مختلف الميادين السياسية واجتماعية ، والعسكرية ، وظلت هذه العنصرية فى أحشائه عناصر غريبة ، متنافرة لا تقبل الذوبان فحكمتهم علاقات الصراع ، والخصومة ، والكراهية ، فوزعت نشاطهم ، وبعثرت جهودهم وهدرت طاقتهم الخلاقة ، فأنعدم ميلهم الى التنسيق ، وأدى عدم توافقهم على أمر واحد الى انعدام الشعور بالمسئولية ، يصف ابن حيان هذا فيقول : « فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك قليل عددهم ،

منقطع مددهم ، اقتسموا قواعد الارض في وقت معا مضرين ملوكها ، راتعين في كلئها باقرين عن غلزتها ، حلوا محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد ، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد لا يقاتل الاعداء الابهم ، ولا تعمم الارض في جوارهم » •

هكذا كان الواقع لدولة الاندلس • كان على خلاف ما يدرك من أحكام الله التي كانت تقتضى منهم الوحدة والتوحيد ، ورغم هذا التفسخ والتوزع وبعدهم الشديد عن جوهر الاسلام فانهم كانوا يدركون ، من حيث يعلمون أو لا يعلمون ، ان ما هم عليه هو الصواب ، فتوزعهم الطائفي حجبهم عن الرسالة التي فتحوها البلاد لأجلها ، كما كان عاجلا ، وهم الفاتحون ، وبين أهل البلد الاصليين ، وكما باعد بينهم توزعهم الطائفي عن رسالة الاسلام فانه حال بينهم وبين الاندماج مع أهل البلد الاندلسيين وغلفت العزلة أهل الاندلس فلم يعودوا يشعرون بالفاتحين وبالتالي لم ينفثوا على الاسلام في سموه وعلوه • وتغلبت الاهواء على الحس السياسى والاجتماعى وجمال العقيدة الدينية فأفقدت الثقافة الاسلامية صيغتها العامة فانحصر أفقها بسبب ضيق أفق ملوك الطوائف ، بل ان شئت قلت : انحسرت الثقافة عن مجراها العام بجهلهم ، فمن الصعب أن نجد في ظروف الاضطراب السياسى التي عاشتها الاندلس جوا يلائم أى تقدم في مضمار الثقافة عند عامة الناس وخاصتهم لانهمكهم أو تأثرهم بالنزعات الدموية التي سيطرت على مسرح الاحداث ولا شك ان عهودا مثل هذه تخلق قلقا وريبا لا نهاية لها في عقول المفكرين الذين يرون أن ثمة بعدا بين الثقافات المحلية السائدة بين الطوائف وبين الثقافة الاسلامية مع شعورهم بواجب اللحاق بها وادراكهم أن واقعهم الحيوى بعيد عن المستوى الحضارى العام للدولة الاسلامية •

ولم يكن ثمة وجه للثقافة الاسلامية — الا ملامح للفقه الاسلامى أطلت على الأندلس من خلال مذهب الامام مالك فقط وظل سائدا في

الاندلس بل ان شئت قلت دخل مذهب مالك منعزلا عن بقية المذاهب الاخرى كما انعزلت ملوك الطوائف عن المعنى العام للخلافة الاسلامية ، كذلك لم يدخل مذهب مالك عن اختيار لخصائصه الفقهية التي تميزه ، انما هي ظروف خاصة بالهجرة وليست خاصة باختيار ثقافي فالقبائل الذين هاجروا من المدينة موطن مذهب الامام مالك حملوا معهم مدونة الفقه المالكي وظلوا عليها عاكفين لا ييغون عنها حولا . فأقاموا عليها واحتكموا اليها في شئونهم السياسية بعيدا عن مظهر الخلافة الاسلامية العام فانتشر مذهبهم الفقهى من خلال سلطتهم السياسية ولم يسمحوا لغيره من المذاهب وهى من الشريعة الاسلامية مما يؤذن بضيق أفقهم الثقافى واذا كان هذا حالهم مع الثقافة الاسلامية فما بال حالهم مع الفلسفة ذلك الغريب الواغد .

ب — العزلة الفكرية :

يرتبط دخول الفكر الفلسفى من المشرق الى المغرب الاندلسى بالمحاولات الفردية من غير أن تتبناه سلطة سياسية أو هيئة تشرف عليه من رجال البلاط ، كما كان الشأن فى المشرق العربى ولعل السبب راجع الى الاضطراب السياسى وسيطرة الادعاء من المنتفعين الذى لا يحسون بولائهم لشيء سوى ما يرضى أنانيتهم الشخصية وان جافى الصالح العام . . يذكر المؤرخون أن أول من اشتهر بادخال الحكمة الى الاندلس هو عبد الله بن مسرة القرطبى (٢٦٩ — ٣١٩ هـ) الموافق (٨٨٣ — ٩٣١ م) حين أسس مدرسته الفلسفية فقد أسسها بمكان منعزل يقع بجبال قرطبة ولم يكن له من الثلاثين الا القليل ومن تأليفه : كتاب التبصرة ، وكتاب الحروف وغيرهما .

أثار صنيعه هذا غضب الفقهاء فاتهموه بالتفسيخ والاحاد وأحرقت كتبه . . . ومنذ ذلك الحين أصبحت الفلسفة تذكر ضمن

الاتجاهات العقلية كنزعة غربية عن الدين ومناهضة له ... فعزل ابن مسره من المجتمع هو عزلة الفلسفة نفسها عن الناس بتلك الديار .

وكانت نتيجة ذلك أن ظل عدد الذين تعمقوا في دراسة الفلسفة بين المسلمين قليلا جدا ولم يقيم بينهم أساتذة يلتف حولهم طائفة كبيرة من الطلبة وكان ينذر أن تقام المجالس العلمية التي تدور فيها مناقشات في موضوعات فلسفية وكان على المفكر المشتغل بها أن يشعر بوحشة ووحدة كبيرين .

في هذا الجو تكونت الفلسفة في المغرب العربي في نفوس أفراد حركتهم الرغبة اليها وكانوا متفرقين لا تربطهم مجالس ولا تحوطهم سلطة شرعية وكانت فوق هذا أبعد عن عقيدة الجمهور مما جعل اتهام الفلاسفة في المغرب بالكفر أمرا شائعا .

يقول « أسين بلاثيوس » ان تاريخ الفكر الفلسفي في اسبانيا (وفي المغرب أيضا) الاسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الاسلامية الشرقية دون أن تكون له بالتراث المحلي صلة حقيقية يقوم عليها الدليل » ..

صنعت هذه الظروف شخصية ابن باجه حين حاول أن يضع منهجا للتوحد في البلاد وحين أراد أن يبين أن الانسان المتوحد ومصلحه ، هو العنصر الأساسى للدولة المثلى ولا يستطيع وصف مرارة الوحشة، والغربة، والتوحد ، مع التراث لدى الانسان ، وهو يعيشها داخل هيئة اجتماعية فاسدة ، سوى الفلاسفة ، والصوفية ، والادباء ، فهم المعنيون بالانسان وبتكامله ومن بين هؤلاء الذين تكلموا عن الاغتراب ، ابن باجه في رسائله : « رسالة الوداع » ، « رسالة النفس » ويصوره أكثر وأعمق في كتابه المعنى لنا : « تدبير المتحد » .. جمع فيه بن أسلوب الأديب وروح الصوفي ومنطق الفيلسوف ، وهو على اتفاق مع من سبقه من فلاسفة الاسلاميين ، ولاسيما الفارابي، غير أنه يتميز بشيء له

شأن هو طريقته في بيان تكامل العقل الانساني ، ومبلغ الانسان في العلم ، ومكانه بين الموجودات .. وهو ذلك الفتى المعروف بابن باجه بالاسبانية ويترجم الى ابن الصائغ بالعربية أبو بكر محمد ابن يحيى ولد بسرقسطة في نهاية القرن الحادى عشر ، الموافق للقرن الخامس الهجرى ، وتوفى بفاس سنة ١١٣٨ م سنة ٥٣٣ هـ ، مات مسموما بيد طبيب كان يحسده على ذكائه وشهرته .. اشتغل بالسياسة في دولة المرابطين فاستوزره أبو بكر يحيى بين تاشفين مدة عشرين سنة وتنقل ، بين سرقسطة وأشبيلية ، وغرناطة ، وفاس ، حنق عليه : الفتح بين خاقان ، في كتابه : « قلائد العقيان » حين وصفه : « بأنه قذى في عين الدين ، ونكبة على المؤمنين ، ويحتقر كلام الله ، ولا يكثرث لاوامر الشرع ويفضل الشر على الخير ، وأن في رأيه كثيرا من الهوس والجنون » غير أن تآليفه الفلسفية وتلاميذه يشهدون له على خلاف ما يذهب اليه ابن خاقان . فمن تآليفه : شرح كتاب الطبيعيات لارسطو ، وشرح كتاب ايساغوجى ، وشرح ثلاث رسائل للفارابى ، وبجانب ذلك له مؤلفاته الفلسفية الخاصة : منها رسائل في الرياضة ، والنفس ، ومقالات في الفلسفة ، والطب ، والتاريخ الطبيعى ، ورسالة في الوداع وتدبير المتوحد

وصفه أبو الحسن الغرناطى بقوله : « انه أول من استطاع استغلال تأليف فلاسفة المشرق » فهو أحد الثلاثة الذين تواصل بهم المد الثقافى الفلسفى بين المشرق والمغرب ، فابن باجه المتوفى سنة ٥٣٣ هـ يعد معاصرا : للغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وليس بين وفاة ابن طفيل ووفاة ابن باجه الا ثمانية وأربعون عاما ، وابن رشد ، معاصر لابن طفيل ، ولم يعيش بعد ابن طفيل الا أربعة عشر عاما .

قال عنه ابن طفيل : انه أثقب المتأخرين ذهنا ، وأصح نظرا ، وأصدق روية غير أنه شغلته الدنيا حتى أخذته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته ، وأكثر ما يوجد له من تآليف انما هي غير كاملة » .

مشاعر الاغتراب في فلسفته :

لا يرضى الانسان العادى أن يكون انسانا هامشيا في حياته وحياة المجتمع . هذا شعور متسلط على الانسان لا يقوى على طرحه عن نفسه وان عجز عن تحقيق ذاته في المجتمع أما الانسان الخاص الذى ينتمى الى الصفة فانه يظل قائما على تحقيق ذاته اما على مستوى المجتمع ، واما على مستوى الفكر ، والثقافة ، أو مستواهما معا فهو قد يعيش المجتمع من غير أن يرضى عنه مادام هذا المجتمع — في نظره يمثل المستوى المنحط للانسان من حيث : انعدام الشعور بالمسؤولية يمثل المستوى المنحط للانسان من حيث : انعدام الشعور المجتمع بيباينه الانسان المفكر ، وان كان يعيش فيه . بيباينه حين يريد تحقيق ذاته وان كان يعيشه لانهم مرغم عليه ، في هذه الحالة يوصف بأنه اجتماعى ومنعزل — متوحد ومنفرد ، منفرد بعزلته الداخلية ، وغربته عن مجتمعه فهو متوحد مع ذاته وفكره ، فالغربة التى يعيشها في واقعها هي غربة الافكار والمفاهيم ، طبيعة أفكاره ومفاهيمه ، تختلف تماما عن الافكار السائدة، هو في داخله ينشد صورة المجتمع العادل الذى تأتلف فيه القيم الانسانية العليا وحين يفتقدها في حياة مجتمعه ثم لا يجدها ، يعود الى ذاته فينكفى عليها محتما بها لى لا يصطدم بالواقع الذى تسيره أفكار غريبة لا تمت الى قيم الاسلام العليا والتى يؤمن بها ويود لو يجد فيها ملجأ يأوى اليه لينسجم مع فكره وشعوره مدبرا نفسه متوحدا مع المبادئ الالهية . وشاء الله لابن باجه أن يضع ملامح صورة المغترب في كتاب سماه « تدبير المتوحد » وهو وسيلة رمزية في النقد الاجتماعى أراد أن يبين فيه انحطاط الواقع الاجتماعى والاخلاقي عن قيم الاسلام والانسانية مظهرا فيه مدى تفسخ العقائد الدينية على يد هؤلاء الساسة الذى لم يرتفع مستواهم الى مستوى المبادئ الاسلامية التى يحملون لواءها ، كما يعتبر وسيلة من وسائل النقد الذاتى أراد ابن باجه اشاعته أو اظهاره في وقت كثر فيه الحديث عن الاسلام

والعمل به بينما واقع المسلمين يورطهم ويلطخ من سمعتهم ويقيم عليهم
وزرهم ببعدهم الشديد عنه فابن باجه أراد أن يضع مبادئ معيارية
لمحاسبته الذات العابثة •

ويعد كتاب تدبير المتوحد من الأعمال الأدبية الذاتية وصورة قريبة
من أدب الاعتراف الذى يتعامل مع أغوار النفس البشرية •• كما
يعطى انطبعا عاما عند قارئه أنه فلسفة تحمل معنى التمرد على قضايا
عصره السياسية والفكرية فهو ليس بينها وبينه انتماء فهو مباين
لمجتمعه ومنعزل عنه ومتوحد مع ذاته وفكره لأنه لا ينتمى الا لذاته •

ولا شك أن هذه النزعة أو الاحساس بالذات ما كان له أن
يطفو على السطح ما لم يكن الاحساس بالذات قويا غالبيته التى تضعف
ويستسلم فيها الفرد استسلاما كاملا للظروف الاجتماعية تتوارى فيها
الشخصية الفردية خلف الوجه العام للمجتمع • ولكن المشكلة هنا هى
تفكك هذه الرابطة القوية التى تربط الفرد بالعائلة الكبيرة أو بالقبيلة
الكبيرة فيضيع في المدينة الكبيرة ويحس أنه يجابه الظروف وحده فيقوى
شعوره بذاته بقدر ما يقوى احساسه بالنفور من هذه الحياة الجديدة
ويدخل في مجال صراع لا تكون نتيجته التكيف السريع بطبيعة الحال
وانما تكون نتيجته الاغتراب الروحى •

يفر من يومه الى غده ليخلق لنفسه دنيا غير دنياه يحس أنه يتكيف
معه ما دام لا سبيل الى التكيف مع اليوم ومع الواقع الكريه •

يقول الدكتور غلاب : قد يرى الباحث أن ابن باجه يطلب الى
الانسان الانسلاخ من الهيئة الاجتماعية فيحسب أن معنى هذا هو
العزلة التى يأمر بها المتنسكون •• ويرد الدكتور غلاب على ذلك بقوله :
ولكن الحقيقة أن العزلة التى يأمر بها ابن باجه ليست انقطاعا عن الناس
وانما معناها أن يظل الانسان متصلا بالمجتمع غاية ما فى الامر أن

يكون دائما أمير نفسه وسيد شهواته والا ينسحب في تيار رذائل الهيئة الاجتماعية وبعبارة أخرى أن يتمركز في نفسه ويشعر دائما أنه مثل يحتذى ومشرع يقنن القواعد للمجتمع بدل أن ينماع فيه وعنده أن كل انسان مستعد لسلوك هذا الطريق ولا يؤخره عنه الا استهانتة بذاته وخضوعه لرذائل الهيئة الاجتماعية ولو أن كل فرد نبذ هذه لوصل بالجمعية البشرية كلها الى الكمال » •

ونحن نرى هذا الرأي لانه مؤيد برأى ابن باجه حين يقول : غرباء في آرائهم قد سافروا بأفكارهم الى مراتب أخرى هى لهم كالاوطان • مثل هؤلاء اذا اجتمعوا فى المدينة الكاملة فتوحدوا على عمل واحد ورأى واحد ومعتقد واحد فتزول غربتهم وتدوم عليهم السعادة •

اذا كانت الفلسفة تنبثق من الشك فى طبيعة العالم الموضوعى ولاسيما اذا كان محاطا بالأوهام فان غاية التفلسف يصبح هنا هو رفض معاشة العالم الخارجى لتأكيد الوعى الذاتى الراض ومادام الانسان لا يستطيع أن يبقى رافضا ، رافضا لوعية الذاتى ولوعية الاجتماعى ، معا ، لان داخل دائرة الرفض المطلق معناه الانتحار لذلك لابد له أن يتصالح اما مع وعيه الذاتى الداخلى أو مع وعيه الاجتماعى الخارجى حتى يتجنب المشاعر القوية التى تدفعه نحو الانتحار ليبقى محاطا بآلام الشعور بالغربة كلما ازدادت الهوة بينهما ، أما اذا توافق الوعى الذاتى مع الوعى الاجتماعى فهو الشعور بالذات المتجاوبة مع الشعور بالآخرين واذن فهو اجتماعى فى أعماق طبيعته •

وحين يعانى العزلة داخل نفسه فانه يعانيتها وسط الآخرين وتعنى العزلة هنا عدم تفاعله مع وسطه الاجتماعى أو عجزه عن التفاعل ويرى بديل ذلك عنده فى داخل ذاته من خلال رؤيته الثقافية مما يجعله ينظر داخل نفسه فيفسر منها ويأنس لها من حيث أنه استطاع التعالى على المؤلفين الآخرين وتجاوب مع عالمه الثقافى وحينما يحدث ذلك فان

انفصاله لا يكون عن الله ، أو العالم الالهي واتما عن « الروتين » الاجتماعي ، ويعتبر بانفصاله قد اجتاز مرحلة من مراحل من مراحل نموه الروحي وتخلي بعلمه من أن يكون مجرد آلة أو أداة موضوعية في الهيئة الاجتماعية .

يقول د. ماهر حسن فهمي : « العزلة هنا ضرب من الاحتجاج السلبي وهروب من صراع لم يعد وراءه طائل ونفور من حياة خافية ملؤها الدماء والشهوات والاطماع » .

وتدور فلسفة ابن باجه حول الغاية التي وجد الانسان الى الله والاتصال به وابرار قيمة الانسان الوطني حين يصور نموذجه أنه هو الانسان الذي يتبع عقله ويسيطر على غرائزه وشهواته من غير زهد أو تصوف لها انما هو فيلسوف يحيا حياة عقلية محضة يعنى بشئون نفسه وشئون مدينته بروية وفكر ويعتبر المتوحد في نظره مواطنا في دولة مدنية غير قبلية .

ومن خلال تركيزه على ابرار خصائص الانسان الوطني تغيا في كتابه ترسيخ ارتباط الحق الالهي بواقع الناس وداخلهم حتى يجعل اتجاه الأفعال الانسانية متجهة نحو الغائية الطبيعية فيتوحد سلوكهم نحو سعادتهم فالطبيعة مليئة بالقوانين العادلة التي تحكم الانسان وتسيره وفق مشيئة العدل الالهي .

ولما كان مفهوم الدولة عنده مفهوما غير قبلي والمتوحدون في نظره وطنيين في دولته المثالية غرباء عن مجتمعهم الحقيقي الذي تحكمه أشخاص هم أقل الناس جدارة لا يكاد المرء ينظر اليهم الا وهو يشمر بقلق يفترسه من عدم التناسب في العلاقات والسيطرة والاستبدادية التي تحكمهم ويحكمون بها أحكام الجهل والأهواء .

فضلا عن الدسائس التي تحاك في الخلفاء بالتحالف مع الشيطان
لقتل أنفسهم فمن الصعب أن يستقر وضع ما لم تكن له قواعده ، أحس
ابن باجه بقلق زمانه فأخذ يركز على المبادئ التي في النهاية توجه
السلوك نحو السعادة البشرية •

وهي القوانين التي أودعها الله في الطبيعة ويستطيع الوصول
إليها بتدبيره الصادق وهي :

— الدين : يرد الإنسان الى قواعد الايمان والعلاقة بالله •

— الاخلاق : ترده الى نفسه حين يسيء معرفتها •

— السياسة : ترده الى المجتمع وواجباته نحوه •

ضمنها كتابة تدبير المتوحد وتلك تصوراته ويبدو أن الموت عاجله
قبل أن يفرغها كلها فيه ...

التصورات المثلى لشخصية المتوحد وتدبير سلوكه :

معنى التدبير : ترتيب أفعال نحو غاية مقصودة •

فهى لا تطلق على من فعل فعلا واحدا ، يقصد به غاية ما ، ولا على
من اعتقد في ذلك الفعل أنه واحد • والتدبير ، قد يكون : بالقوة ، وقد
يكون بالشئ ، يقول : ولفظة التدبير : دلالتها على ما بالقوة أكثر وأشهر •

التدبير في الفكر :

ثم بين : أن الترتيب اذا كان في أمور بالقوة ، فانما يكون مختصا
بالفكر ، وهذا يختص بالإنسان فقط •

التدبير في الافعال :

يقول ، وقد يقال : يطلق التدبير على ايجاد هذا الترتيب على جهة ما هو متكون وهو في أفعال الانسان أكثر وأظهر وفي أفعال الحيوان غير الناطق أقل ذلك •

والتدبير عند الانسان يوصف بالخطأ ، والصواب •

اطلاق التدبير :

١ — اذا قيل عاما قيل في كل أفعال الانسان كيف كانت •

٢ — يقال في المهن •

٣ — يقال : في القوى •

٤ — يقال : في ترتيب الامور الحربية •

ثم قال وأشرف اطلاقاته هو تدبير المدن ، وتدبير المنزل •

لقد اختار ، من هذه الاطلاقات : المعنى السياسى : وهو تدبير المدينة ، وصورته المصغرة : المنزل •

اطلاقه على الله :

أما اطلاقه على الله فهو يقول : انهم يطلقون على الله : انه مدبر العالم •

وتدبير الاله للعالم انما هو تدبير بوجه آخر بعيد النسبة عن أقرب المعانى تشبها به وهذا هو التدبير المطلق وهو أثرها •

ولذلك لا يردف الجمهور على تدبير الاله : بالصواب انما يقولون
في تدبيره انه محكم ومتقن ، وما جانس هذه الالفاظ فان هذه
الالفاظ تتضمن وجود الصواب وشيء آخر شريف رائد له فان الصواب
عند الجمهور كالجنس للفعل المتقن والمحكم •

علاقة المنزل بالمدينة من حيث التدبير :

يرى ابن باجه : أن التدبير قد يوصف بالخطأ ، أو الصواب ، وكما
يقول ابن باجه : ان من يظن أن التدبير قد يعرى من هذين المتقابلين عليه
الفحص والتعقب ليظهر له أن هذين المتقابلين يلزمانه ضرورة وهذا لا
يخشى على من كان له أدنى وقوف على الفلسفة المدنية •

تدبير المنزل لا جدوى له ولا هو علم ما لم تصلح المدينة :

المنزل جزء مدينة اذا صلح الكل صلح الجزء
وليس العكس كما يرى ابن باجه فهو يوجه قوله
شارحا : والمنزل في غير المدينة الفاضلة مريض ، ومنحرف ،
ووجوده ليس بالطبع ، انما هو بالوضع وقد يشترك المنزل الفاضل مع
غيره في المدينة الاخرى غير الفاضلة ، وليس يخلو منزل أن يكون فيه أمور
كثيرة مشتركة مما شأنها أن تكون في المنزل الفاضل •

يقول ابن باجه : وهذا الجزء المشترك ، أوهم أن القول فيه علمي •

ويرى أن المنزل الذي يخلو من الاشتراك لا يمكن أن يكون منزلا الا
بإشتراك الاسم ثم يقول : فالقول في تدبير هذه المنازل الناقصة ، وهي
المرضى ، قد تكلف قوم القول فيه ، ومن بلغنا كتبهم في تدبير المنزل
فأقاويلهم بلاغية •

والرأي لديه أن كمال المنزل ليس مما يقصد لذاته ، وانما يراد به
تكميل المدينة أو غاية الانسان بالطبع ، فأقول في غاية الانسان ، جزء من

القول : فى تدبير الانسان نفسه فعلى أى الجهتين كان فهو اما جزء مدينة ، فالقول فيه جزء من القول فى المدن ، أو توطئة لغاية أخرى ، فالقول فيه جزء من القول فى تلك الغاية • فمن هنا تبين : أن القول فى تدبير المنزل على ما هو مشهور ليس له جدوى ولا هو علم • لقد أطلق ابن باجه المنزل على مجموعة من القواعد التى يضبط بها عدد من الافعال لتتجه الى غاية السمو الانسانى وفق تفكير مستقيم بعيد عن كل تأثير أجنبى ، وهو يرى : أن مثل هذا التفكير لا يتييسر الا لمن اعتزل الهيئة الاجتماعية الملتاثرة ببقايا الاعراف الفاسدة متمركزة داخل ذاته أو وجد فى مدينة فاضلة •

ومن هنا جاءت وجهة نظره فى تفرقة الدقيقة بين المنزل والمدينة من حيث أن المدينة أصل بصلاح المنزل وليس العكس حين اعتبر المنزل مهما كانت قواعد سلوكه فهو فى غير المدينة الفاضلة مريض ومنحرف — لانه يصبح معها غريبا داخلا فى حكم الثوابت •

خصائص المدينة الفاضلة ومعنى الغربة فيها :

يرى أن المدينة الفاضلة أفعالها كلها صواب ولا يغتذى أهلها بالاغذية الضارة فلذلك لا يحتاجون الى معرفة أدوية ، وعلى أهلها أن يتمتعوا بالرياضة اذ لو أسقطوا الرياضة حدثت عن ذلك أمراض كثيرة •

ويرى أن من خواص المدينة الفاضلة أن لا يكون فيها طبيب ، ولا قاض ، كذلك يرى : أن المدينة الفاضلة ليس فيها مجال لصناعة الطب ، وصناعة القضاء وذلك أن المحبة بينهم أجمع فلا تشاكس بينهم أصلا • وكلما بعدت المدينة عن الكاملة (أى صفة الكمال) كان الافتقار الى هذين أكثر وكان فيها مرتبة هذين الصنفين من الناس أشرف •

ويضيف فيقول ان المدينة الفاضلة الكاملة قد أعطى فيها كل أفضل ما هو معد نحوه وأن آراءها صادقة وأنه لا رأى كاذبا فيها •

وأن أعمالها هي الفاضلة ، بالاخلاق وحدها •

ويرى من علاقاتها بالمدن الأخرى : أن كل رأى غير رأى أهلها فهو كاذب ، وكل عمل يحدث فيها غير الاعمال المعتادة فيها ، فهو خطأ •

فاذن ليس يوضع في المدينة الكاملة أقاويل من رأى غير رأيها أو عمل غير عملها •

يرى أن المدينة يمكن أن تختل بالاعمال ، فيوجد عمل آخر يهتدى اليه الانسان بالطبع أو يتعلمه من آخر ، ويمكن أن يكون فيها : رأى كاذب أو يكون فيها علوم مغلفة •

النوابت أو الانسان المنفرد أو النابت المفرد • هم الغرياء :

أطلق ابن باجه : هذا الاسم على من وقع على رأى صادق لم يكن في تلك المدينة أو كان فيها نقيضه هو المعتقد وكلما كان معتقداتهم أكثر وأعظم موقعا ، كان هذا الاسم أوقع عليهم وهذا الاسم يقال عليهم خصوصا •

وقد يقال : بعموم على من يرى غير رأى أهل المدينة كيف كان صادقا أو كاذبا ، ولكن ابن باجه يقول : فلنخلص نحن بهذا الاسم : الذين يرون الآراء الصادقة •

ونقل اليهم هذا الاسم : من العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع •

والنوابت : يوجدون في المدن الاربع دون الكاملة ولا ينبغي أن يقال هذا الاسم في المدينة الفاضلة لانه لا آراء كاذبة فيها ، ولا وجود لهم الا في حال انتقاص أمرها وصيرورتها غير كاملة •

فمن الممكن في المدن الأخرى أن يوجد الاصناف الثلاثة وهم : —

— النوابت • — الحكام • — الاطباء •

والسعداء الذين أمكن وجودهم في هذه المدن فانما يكون لهم :
سعادة المفرد ، وصواب التدبير يبدأ من تدبير المفرد ، وسواء كان المفرد
واحدا ، أو أكثر من واحد ، ما لم يجتمع على رأيهم أمة ، أو مدينة فان
هؤلاء هم الذين يعنيهم الصوفية بقولهم : غرباء ، لانهم وان كانوا في
أوطانهم ، وبين أترابهم وجيرانهم ، غرباء في آرائهم قد سافروا بأفكارهم
الى مراتب أخر هي لهم كالأوطان •

ثم يقول ابن باجه : عن هذا الانسان المنفرد في هذه المدن كيف
يتوحد حتى يكون صحيحا ؟

أو كيف ينال هذا النبات المنفرد : السعادة اذا لم تكن موجودة ؟ •

أو كيف يزيل عن نفسه الاعراض التي تمنعه عن السعادة أو عن
نيل ما يمكنه فيها ؟

يجيب ابن باجه : أنه بحسب غاية رويته أو بحسب
ما استقر في نفسه من آراء صادقة يستطيعون تحصيل
السعادة ولكنه يتشكك في حفظها لهم فيقول :
وأما حفظها ، أي السعادة فذلك شبيه بحفظ الصحة فلا يمكن في السير
الثلاث وما تركب منها أن يحتفظ الانسان المنفرد لسعادته نظرا لتعرضها
للآراء الصادقة والكاذبة •

ولذلك يرى : أن هؤلاء النوابت متى وجدوا في المدن الأربع فان
وجودهم هو سبب حدوث المدينة الكاملة • ويعنى التوحد : أنه مقابل

المنفرد أى هؤلاء النوابت بين غيرهم يجمع بينهم فى المدينة الكاملة فيتوحدون على عمل واحد ورأى واحد ومعتقد واحد فتزول غربتهم وتندوم عليهم السعادة •

يجمع ابن باجه فى مدينته الفاضلة النوابت من المدن الاخرى أو المنفردين بوحدانيتهم واحساسهم بالوعى الذاتى المنفرد والشعور بالغربة الفكرية المتفرد ليصبحوا شيئاً واحداً مع وعيهم الاجتماعى ولا شك أن وعيهم الذاتى فى المدينة الفاضلة يقتضى الشعور بالآخرين المتوحدين معهم ، وفى ذلك عود الى طبيعة الانسان فهو اجتماعى فى أعماق طبيعته • ثم يتكلم عن الأفعال الانسانية ومراتبها وما يناسب الانسان فى مدينته •

فى الأفعال الانسانية :

كل حى فانه يشارك الجمادات فى أمور •

وكل حيوان فانه يشارك الحى فقط فى أمور •

وكل انسان فانه يشارك الحيوان غير الناطق فى أمور •

فالحي والجماد يشتركان فى الهبوط الى أسفل : طوعا ، والصعود الى فوق : قهرا •

ويشارك الحيوان الحى فيما سبق ، وأيضا بالنفس الغاذية ، والمولدة ، والنامية •

ويشارك الانسان الحيوان غير الناطق فى كل هذه ، وأيضا فى الحس ، والتخيل ، وهى النفس البهيمية •

ثم يمتاز الانسان عن جميع هذه الاصناف : بالقوة الفكرية ، وما لا يكون الا بها فذلك يوجد له التذكر ولا يوجد لغيره •

وإذا كان الانسان يشارك غير الجماد ، والحي ، والحيوان ، فكان بالضرورة أن تلحقه الافعال الضرورية كالهوى من أعلى ، والاحتراق بالنار •

وتلحقه الافعال التى لا اختيار له فيها أصلا ، كالاحساس ، وما يقع موقعها مثل ما يقع من الانسان عند خوفه الشديد من شتم وغيره •

ثم يبين ابن باجه ، ما يتميز به الانسان خاصة فيقول : وكل فعل يوجد للانسان باختياره فلا يوجد لغيره من أنواع الاجسام •

والافعال الانسانية الخاصة هى ما يكون باختياره فكل ما يفعل الانسان باختيار فهو فعل انسانى •

ويبين معنى الاختيار فيقول : وأعنى بالاختيار : الارادة الكائنة عن روية •

والذى يخرج عن الاختيار من الافكار مثل الالهامات والالقاء ، فى الروح ، مثل هذه يعتبرها ابن باجه : انفعالات عقلية — ان جاز أن يكون فى العقل انفعال كما يقول — كذلك الانسان غير مختص بها أى على سبيل الاختيار فلا تدخل فى أفعاله الاختيارية •

وبناء على تعريفه السابق للاختيار يحدد ثلاثة أفعال للانسان الواحد :

— الفعل البهيمى •

— الفعل الانسانى •

— الفعل الالهى (الانسانى) •

يبدأ تمييزه بين مستويات الافعال بهذا المثال :

ان الانسان عندما يصطدم بحجر أو يخدشه عود :

فان كسر الحجر : لانه ضربه ، والعود : لانه خدشه ، فقط ، فهذا
فعل بهيمى •

أما من يكسره لئلا يخدش غيره ، أو عن روية توجب كسره ، فذلك
فعل انسانى ، فالفعل البهيمى هو الذى يتقدمه فى النفس الانفعال
النفسانى فقط ، مثل : التشهى ، أو الغضب ، والفعل الانسانى : هو ما
يتقدمه أمر يوجبه عند فاعلى الفكر سواء تقدم الفكر انفعال نفسانى ،
أو أعقب الفكر ذلك وسواء كانت هذه الفكرة يقينية أو ظنية •

فالبهيمى المحرك فيه ما يحدث فى النفس البهيمية من الانفعال •

والانسانى : هو المحرك فيه : ما يوجد فى النفس من رأى أو
اعتقاد •

وما تركب من بهيمى وانسانى من الافعال : يوجد فى السير
الاربع •

الفعل الانسانى الالهى :

غأما من يفعل لأجل الرأى والصواب ، ولا يلتفت الى النفس
البهيمية ، ولا ما يحدث فيها يقول عنه ابن باجه : فذلك الانسان أخلق
به أن يكون فعل ذلك الهيا من أن يكون انسانيا لذلك كان الانسان الالهى
ضرورة ، فاضلا بالفضائل •

ثم يقول : من كانت نفسه البهيمية تغلب نفسه الناطقة حتى ينتهى
من شهوته المخالفة لرأيه دائما ، فهو انسان سوء ، البهيمة خير منه ،

وما أحسن ما قيل أنه بهيمة لكن له فكرة انسان يجد بها ذلك الفعل ،
فلذلك تكون فكرته عند ذلك : شرا زائدا في شره ، كالغذاء المحمود في البدن
السقيم كما يقول أبقرط : البدن الرديء كلما غذوته زدته شرا •

وفي النهاية يقول :

الفعل الجمادى : ظاهر أنه اضطرار لا اختيار فيه ولذلك فليس لنا
أن نفعله لان الحركة فيه ليست من تلقائنا •

والفعل البهيمى : هو ليس من أجل شىء الا أنه من تلقائنا •

والفعل الانسانى : بغاياته فظاهر 'ذن ان يحدد الغايات فى الافعال
الانسانية فقط •

القول فى الصور الروحانية : وتدبير المتوحد :

الصور الروحانية أصناف :

١ — أولها : صور الاجسام المستديرة • وهذا ليس هيولانيا •

٢ — ثانيها : العقل الفعال ، والعقل المستفاد ، ونسبته الى الهيولى
لأنه متمم للمعقولات الهيولانية وهو المستفاد ، أو فاعل لها : وهو العقل
الفعال •

٣ — ثالثها : المعقولات الهيولانية : ويقال لها هيولانية ، لانها
ليست روحانية بذاتها •

٤ — رابعها : المعانى الموجودة فى قوى النفس وهى الموجودة :

(أ) في الحس المشترك • (ب) وفي قوة التخيل وفي
قوة الذكر •

وهذا الصنف الرابع ، وسط بين المعقولات الهيولانية ، والصور
الروحانية •

والصور الروحانية العامة : لها نسبة واحدة خاصة ، وهي نسبتها
الى الانسان الذى يعقلها وأما الصور الروحانية الخاصة فلها نسبتان :

احدهما خاصة : وهي نسبتها الى المحسوس •

والاخرى عامة : وهي نسبتها الى الحاس المدرك لها •

وضرب مثاليين به التمييز بين الصور الروحانية العامة والخاصة
فقال :

مثال ذلك : صورة جبل أحد عند من أحسه ، اذا كان غير مشاهد
له فتلك صورته الروحانية لان نسبتها الى الجبل خاصة لاننا نقول : انها
الجبل ولا فرق عندنا فى قولنا هذا جبل أحد ونحن نشير اليه فى مكانه
وهو موجود مدرك بالبصر أو نشير اليه وهو موجود فى الحس المشترك
بعد أن أدركه مدرك كالتخيل •

ونسبته العامة : نسبتته الى واحد ممن شاهده فانه قد شاهده
أعداد من الناس •

ثم أخذ يبين علاقة التدبير الانسانى بهذه الاصناف فقال :

والتدبير الانسانى يستعمل أصناف هذه النسب • فالموجودة فى الحس
المشترك : هى أخط منازل الروحانية ، ثم الموجودة فى قوة التخيل ، ثم
الموجودة فى قوة الذكر ، وأعلاها رتبة وأكملها هو وجودها فى القوة الناطقة ،

والثلاثة كلها جسمية ، أما القوة الناطقة لا جسمية لها أصلا وهذا ما يتعلق بها التدبير الانساني .

معرفة تدبير المتوحد :

لما جعل مقياس الانسان الالهى : الرأى والمعتقد أخذ يتكلم عن المعايير :

أولا — معيار المعتقد : (أ) منطق أرسطو

يقول ابن باجه : الامور الموجودة لشيء ما فى الاعتقاد :

١ — اما صادقة واما كاذبة

٢ — واما بالذات واما بالعرض .

٣ — واما يقينية واما مظنونة .

واضح أن هذه قسمة عقلية تابع فيها منطق أرسطو وقد تكون ذهنية فقط . يقول وظاهر عند من كان له بصر بصناعة المنطق : أن اليقينية انما تكون صادقة ضرورة ، وأما المظنونة فقد تكون كاذبة ، وقد تكون صادقة ، يقول : ونحن فيما نحن بسبيله نجعل ما بالعرض فى المظنونة الصادقة .

(ب) الحس المشترك وقيمته فى الصور الروحية :

والصور الروحانية كيف كانت ، فقد يكذب بها الانسان ، أو يصدق . لماذا ؟ لأن الحس يكذب مثال ذلك حس المسحورين بالأشخاص التى يخاطبونها : حس كاذب .

وكذا حس أصناف من المرضى كاذب (مثل تذوق المرور للسكر

غان حسه كاذب) وللا انسان بالصور الروحانية المختلطة حس صادق ، وكاذب ، وأفضل الصور الروحانية ما كان منها صادقا ، أو مر بالحس المشترك •

أما ما نتخيله من الأمور النائية البعيد عهدا ، مثل تخيل : امرئ القيس ، أو ما نتخيل ما لا نشاهده : بلاد يأجوج ومأجوج ، ونحن لم نصحها فهذه الرسوم الروحانية لم تمر بالحس المشترك فلذلك أكثر هذه كاذبة •

لذلك يقول : فلذلك يشترط في هذه : أن تكون مرت بالحس المشترك •

ثم أخذ يشرح الصور الروحانية الكاذبة بقوله : وأما الصور الروحانية الكاذبة : فهي التي ليس لها وجود ، اما لان موضوعها غير موجود كما في الامثال ، أو يكون الموضوع موجودا والمحمول كاذبا مثل ما يحكى عن زرقاء اليمامة هذا من قبيل الظن ، وما تحكيه النصارى : عن قوم يبنون الهياكل بأسمائهم من أنهم قتلوا ، ثم حيوا ، ثم أحرقوا ، وهكذا ، يرون : أنه أمر الهى •

(أنها لم تمر من الحس المشترك) •

وأما اليقينية من محمولات الصور الخاصة ، فهي المحمولات التي توجد أشخاصها في الصور الجسمانية ولذلك تدرك بالحس •

فهذه ضرورة يجب أن تمر بالحس المشترك •

واليقين : قد يكون بحاسة ، وهو ما كان محسوسا لحاسة ، كاللون : للبصر ، والصوت للسمع ، حسب الاحوال التي هي ضرورة في ذلك • ومنها : المحسوسات المشتركة ، فلا يكتفى في اليقين بها

بحاسة واحدة حتى تتعاون عليها الحواس وربما احتيج الى القوة الفكرية في ذلك . مثال ذلك : هذا المرء حى : فانه لا يكتفى فيه بالنظر دون اللمس ، فانه قد يكون مغشيا عليه ، ودون القوة الفكرية في أن هذا المرء حى قد يكون به انطباق العروق فلا يتنفس ويعدم جميع الأفعال الحيوانية وانما بقى من أفعال الحى ما ندركه باللمس ، غير أنه لا يفيد اليقين فيه فتستعين القوة الفكرية بأشياء آخر مثال ذلك : أن يفصد ، فيخرج منه دم حار ، فالحس يوقع اليقين في الصور الخاصة .

وأما الصور الروحانية الكاذبة فتتقع عن وجوه كثيرة :

ومنها المحسوسات الخاصة أن يكون بالعرض مثل : أن يكون الانسان في دخان الصنوبر زمانا طويلا فيسود وجهه فيظن أن لونه أسود . وكذلك الاصوات ومصادر المحسوسات .

فأما في المحسوسات المشتركة فمن ذلك أغاليط الحواس مثل ما يرى المتحرك في البحر أن الجبال تجرى . ومن هذه تلتئم أصناف من صنائع المشعبدزين .

ومن الصور الروحانية الكاذبة : يكون الرياء والمكر وقوى آخر شبيهة به وهذه وأصنافها يعظم موقعها في السير الموجودة حتى يظن بالعارف بها الحكمة ويظن أنها هى الحكمة ويرى الجمهور فيها وكثير من خواص أمثال هذه المدن أنها التعقل . في هذا القول ، كذلك هى موجودة في الفرد من الناس في النادر من الزمان ، فلا يتقوم من هذا الصنف من الموجودات صناعة أصلا ، ولا نحوه تدبير انسانى فلذلك لا مدخل له في هذا القول ويشبه أن يكون أمثال هذه الالهامات الالهية من كانت له هذه القوةسمى محدثا منهم عمر بن الخطاب على ما رواه المحدثون ومن هؤلاء أصحاب الظنون الصادقة .

والفرق بين أصحاب الظنون الصادقة وبين المحدثين : أن هؤلاء يتقدم عندهم بالوضع أحد جزئى المتناقض على شريطة كل مطلوب فيتقدم الى ذلك الانسان الطرف الكاذب فيظنهما على غير قياس وذلك فى أغلب أحواله •

والمحدث : ينشأ لديه الامر الصادق دون أن يتقدم هو ونقيضه معا ودون تذكر يذكره بذلك ولا يتشوق الى علم ذلك بفكر ولا قياس فلا يكون ذلك عنده طرف نقيض أصلا •

ودو الظن الصادق : انما ينشأ لديه التصديق فقط •

والمحدث : ينشأ لديه التصور التصديق معا •

أمثال هذه : زائدة على الامر الطبيعى لكنها مواهب الهية وهذه لا يحدث عنها صناعة لانها فى الاقل من الناس •

ثم يقول ابن باجه : لا نقصد احصاء أصناف التدبير ، بل نقصد التدبير الصادق ، لانه أفضل ، ولانه قد يمكن أن ينال المتوحد السعادة الذاتية به فأما استعمال الكذب فانه انما يدخل فى انالة السعادة أهمل المدن الأخرى ونحن انما نقصد فيما نحن بسبيله تدبير المتوحد •

القياس وقيمته فى الصور الروحانية :

قولهم : هذا حائط مبنى فله بان ، فالصورة الروحانية هنا : طريقها القياس ، غير أن القياس انما يوقع صورة الشئ الروحانية الفكرية ، فذلك تقع فى الحس المشترك : على خلاف ما كانت عليه ، وما هى عليه ، من التشكيلات التى يدركها الحس منها ، والصورة الروحانية المتحصلة بالقياس ، تختلف عن المتحصلة بالحس المشترك ، وسبب الاختلاف : أنها فى القياس ، كانت نتيجة القوة الفكرية ، وفى الحس المشترك : تعاون

معها القوى الثلاث : قوة الحس، قوة الفكر، قوة الذكر ، فإذا اجتمعت القوى الثلاث حضرت الصورة الروحانية : كأنها محسوسة ، لأنها عند اجتماعها يكون الصدق : ويشاهد العجب من فعلها ، وهذا هو الذى ظنه الصوفيون غاية قصوى للانسان •

فبهذه الوجوه : يقع اليقين فى محمولات الصور الروحانية بالذات ، وقد يقع بالعرض من الاخبار وتواترها ، الا أن ذلك انما يكون من اجتماع ما للقوة الفكرية الذاكرة ولذلك اذا لم يتحد معها الحس لم تحضر صورة الشئ، كما هو فى الوجود •

وأما فيما ليس بحس ، سواء كان من شأنه أن يحس ، غير أنه غائب ، أم لأنه قد فسد الجوهر ذو الصورة الروحانية ، وان كان حائزا ، فيكون غائبا عن الحس ، وهذا انما هو أكثر فيما يتناول زمان عدمه •

الالهامات :

وهناك صنف آخر لم يمر بالحس المشترك : شخصه ، ولا اسمه ولا ما يدل عليه ، وقد يكون من قبل العقل ، ويتوسط القوة الناطقة لاسبما فى الامور المستقبلية التى هى بالقوة •

وذلك : فى الرؤيا الصادقة ، وفى الكهانات التى تذكر •

وهذه لا يعرض لها ابن باجه لأنها خارجة عن اختيار الانسان وليس له فى وجودها أثر يذكر •

ابن باجه يرفض أن يكون الصوفية أعضاء فى مدينته :

يقول ابن باجه معقبا على الصوفية :

« وهذا هو الذى ظنه الصوفيون غاية قصوى للانسان » •

وكذلك يقولون في دعائهم : « جمعك الله » و « عين الجمع » •
لأنهم لقصورهم عن الصور الروحانية المحضة قامت عندهم هذه الصورة
الروحانية مقام تلك • ولما كانت هذه تكذب عند اقتراها ويحدث شعور
بصدقها عند اجتماعها دائما ظنوا اجتماعها هي السعادة القصوى • ولما
كانت عند اجتماعها تحضر لمن له صور غريبة ، ومحسوسات بالقوة هائلة
المنظر ، وأنفس وأحسن كثيرا مما في الوجود ظنوا أن الغاية ادراك هذه •
ولذلك يقول الغزالي أنه أدرك مدركات روحانية وشهد الجواهر الروحانية ،
وعرض بعظم ما شاهد بقول الشاعر :

وكان ما كان مما لست أذكره

ولذلك زعم الصوفية : أن ادراك السعادة القصوى قد يكون بلا
تعلم بل بالتفرغ ، وبأن لا يخلو طرفة عين من ذكر المطلق ، ولأنه متى
فعل ذلك اجتمعت القوى الثلاث ، وأمكن ذلك ، وذلك كله ظن : وفعل
ما ظنوا : أمر خارج عن الطبع • وهذه الغاية التي ظنوها اذن لو كانت
صادقة ، وغاية للمتوحد ، فادراكها بالعرض لا بالذات ، ولو أدركت لما
كان منها مدينة ، ولبقى أشرف أجزاء الانسان فضلا ، لا عمل له ، وكان
وجوده باطلا ، وكان يبطل جميع التعاليم والعلوم التي هي الحكمة
النظرية •

مصادر البحث

١ — رسائل ابن باجه وكتاب : تدبير المتوحد حققها وقدم لها

د • ماجد فخرى •

٢ — تاريخ الفكر الاندلسي بالنيثيا

ترجمة د • حسين مؤنس •

٣ — المقتبس

ابن حيان — تحقيق م • أنطونيه •

- ٤ — تاريخ الاندلس
د. أحمد بدر *
- ٥ — التطور المذهبي بالمغرب
محي الدين عزوز *
- ٦ — الفلسفة الاسلامية وملحقاتها
عمر رضا كحالة *
- ٧ — تاريخ الفلسفة في الاسلام
دي بور — ترجمة د. عبد الهادي أبو ريده *
- ٨ — الفلسفة الاسلامية في المغرب
د. محمد غلاب *
- ٩ — الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث
د. ماهر حسن فهمي *
- ١٠ — القلق الانساني
د. محمد ابراهيم الفيومي *